

الفصل الأول

هل للعرب والمسلمين قابلية للاستعمار؟

obeikandi.com

عندما نريد أن نتفحص شعباً من الشعوب ونبحث في نفسيته وروحه وعقله عن ما يسمى القابلية للاستعمار لا نعثر على ذلك لأن القابلية أمر طارئ وليس فطرياً، فالفطرة التي أوجدها الله في الإنسان ترفض الاستعباد وتأبى الاسترقاق، بل هي تنطلق بكل ما أوتيت من قوة روحية نحو الحرية وفضائها الرحب الواسع. وحين نطبق قانون الفحص والكشف على الإنسان العربي لنرى ما إذا كان لديه قابلية للاستعمار أم لا، يقف أمامنا علم النفس التحليلي - إن صحت نظرياته - ليشير لنا بوضوح إلى تكوين النفس عند الإنسان العربي. ويقف أمامنا علم الشعوب (الأنثروبولوجيا) ليدلنا على أساليب البحث في الشعوب وعاداتها وتقاليدها وتكوينها الديني والاجتماعي وكذلك تقف أمامنا معطيات التاريخ العربي القديم الذي يدرس منشأ العرب وأراضيهم وآفاق تحركهم. في مدار علم النفس نعثر على نظريتين متناقضتين، نظرية عقدة السادية، ونظرية عقدة المازوخية.

الأولى، تختصر كلامها بأن بعض الناس فيهم حب التلذذ بتعذيب الآخرين فيسمون ساديين والثانية، تختصر كلامها بأن بعض الناس يحبون أن يُمارس عليهم العذاب وهم يتلذذون لذلك.

أما النظرية الأولى، فبعيدة كل البعد عن الشخصية العربية. ولم يعرف عبر التاريخ أن عربياً لديه عقدة التلذذ بتعذيب الآخرين.

أما النظرية الثانية، فهي التي تساوى مع ما ينظره دعاة الاستعمار. بمعنى أن الإنسان العربي قد يتلذذ وهو يرى الآخرين يعذبونه. والقبول بالاستعمار بل القابلية للاستعمار تعني أن يتلذذ العربي بوقوع الظلم عليه والتعذيب. فهل هذه النظرية تنطبق حقاً على الإنسان العربي؟

لنتفحص شخصية هذا العربي ونسبر أعماق نفسه وعقله وروحه. فماذا نرى وماذا نجد؟

يقول ابن خلدون: العرب أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة
وُبُعد الهمة والمنافسة في الرياسة. قلما تجتمع أهواؤهم، من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك
إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة^(١).

وهم أقرب الناس إلى الشجاعة لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم. ولا يكلونها
إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في
الطرق. قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية^(٢).

ولننظر إلى ما يقوله المستشرق أوليري: العربي يملؤه الشعور بكرامته الشخصية
حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة. وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته وقائده في
الحروب الحسد والبغض^(٣).

ويقول لامانس: إن العربي نموذج للديمقراطية، ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها إلى
حد بعيد. إن ثورته على كل سلطة تحاول أن تحد من حريته ولو كانت في مصلحته ويبلغ
حب العربي لحريته مبلغاً كبيراً حتى إذا حاولت أن تحدها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه
وحش في قفص. وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة إلى حريته. وقد حاول الفرس
والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم ولكنهم كانوا يعدلون عن ذلك لما
يستلزمه فتح جزيرة صحراوية من ضحايا في الأنفس والمال. ولأن طبيعة العيشة العربية
جعلتهم لا يخضعون لقوة واحدة إذا تغلب عليها المحارب خضعت له الأمة ومن أجل
ذلك رأى الفرس والروم أن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل
المجاورة على أن يقرروا على التخوم يزرعون ويتحضررون ثم يكونون لهم ردياً يصدون
غارة الأعراب الذين يغزون وينهبون^(٤).

فإذا كانت الشخصية العربية على هذا الشكل قبل الإسلام فكيف أصبحت بعد أن
دخل العرب في الدين الجديد؟

في هذه الحال، نستطيع أن نرى مئات التعاليم الإسلامية التي زرعها الإسلام في نفس
العربي. فإضافة لما كان يتمتع به من شعور بالحرية والكرامة وعدم الخضوع لحاكم يحكمه
أضاف الإسلام فيه وفي شخصيته قيماً جديدة زادت لديه من الاعتزاز بنفسه أكثر فأكثر.

يقول الخليفة عمر رضي الله عنه: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومن اعتز بغير الله ذل.

وهذه العزة هي التي خلقت في الإنسان المسلم الاندفاع دون توقف لنشر الدعوة ليس آهياً بالمصاعب والعقبات والحروب والفتوح.

وقد مضى من عمر الدعوة بضع عشرات من السنين أصبح ما يسمى الحوض العربي والإسلامي يدين كله بالإسلام.. وهذا يعني أن نفسية هذا الإنسان المسلم هي نفسية متحركة مندفعة وليست ساكنة خامدة. ولعل أقل ما يمكن أن نجده في سمة القابلية للاستعمار السكون والدعة والحمود.

ويمكن أن نرى صفات الأمة وسماتها من خلال وصف القرآن الكريم لها. حيث رسخ الإسلام فيها قيماً جديدة أو أخرى متطورة حتى باتت هذه السمات أساسية في تركيب أي مسلم.

فهذه الشخصية ترفض الظلم أياً كان شكله. وبديهي أن القابلية للاستعمار تنفي عن الإنسان رفضه للظلم. فرفض الظلم والقابلية للاستعمار يتعارضان في تركيبة النفس السوية. وقد أقر سبحانه الإذن للذين ظلموا بأن يقاتلوا ليدفع عنهم الظلم. فنلاحظ أن رفع الظلم اقترن بالقتال والدفاع عن الحق. وهو أمر يستحق من الإنسان هذا الدفاع وهذا القتال حتى لو كانت النتيجة الموت دونه.

يقول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

(الحج: 39)

ويقول تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: 227).

وفي سبيل دفع العدوان والباطل والانتصار للحق رسخ القرآن الكريم في النفس المسلمة حب التضحية بالمال والنفس وعدم البخل بأي شيء في سبيل ذلك.

يقول تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: 41).

ويقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
(العنكبوت: 69).

ويقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (التوبة: 20).

وقد رسخ مفهوم الجهاد في النفس المسلمة، وحدد القرآن الكريم أسبابه وغاياته. فهو بذل الجهد في سبيل غايات نبيلة أهمها دفع الظلم عن النفس والمال والعرض والبلاد. ومن طبيعة الخطاب القرآني للإنسان المسلم حضه على عدم موالاته الكفار والمنافقين، فالموالاته شكل من أشكال القابلية للاستعمار. باعتبارها الميل للمل الكفر على حساب ملة الإسلام وقد جاءت آيات كثيرة تحث على عدم الموالاته.

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: 57).

ويقول تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: 28).
ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوِيٍّ مِّمَّنْهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ
فَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: 54).

وقد فصلت هذه الآية صفات المؤمنين الراسخة وأهمها أن المؤمنين يحبون الله، وهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مجاهدون لا يخافون في الله لومة لائم.

فهل هذه صفات من لديه قابلية للاستعمار؟ أم هي صفات الأعداء ذوي الكرامة؟

ولعل الملفت للنظر أن هذه الأمة المسلمة منذ نشأتها الأولى وتكوينها الأول في المدينة المنورة وامتداداً عبر القرون الإسلامية الأولى عقدت معاهدات مع الآخرين وتبادلت الرسائل والحوارات. وكانت جميعها تُظهر العزة العربية والإسلامية. فلا تتنازل عن حق مهما كانت الظروف ومهما كان عدوها قوياً.

فهي من جانب تخضع للحق وترفض الباطل. لا تنتقص من حق الآخرين في وجودهم ودينهم وحياتهم الاجتماعية، لكنها تحافظ على شخصيتها ولا تسمح لأحد أن يمسهما بالتجريح والإهانة، ولنا أمثلة كثيرة من ذلك:

معاهدات رسول الله ﷺ ورسائله إلى الملوك والأمراء وعهوده مع غير المسلمين. وكذلك معاهدات الخلفاء الراشدين ووصاياهم لجيوش الفتح ومعاملاتهم مع غير الأمة المسلمة من يهود ونصارى وغيرهم.

وإذا نظرنا إلى عصر الرشيد والمأمون أدركنا كم كانت أمة الإسلام عزيزة الجانب تأبى أن تُمسّ بسوء أو تهديد ويخشها الأعداء ويحسبون لها ألف حساب.

فلو كانت هذه الأمة قابلة للاستعمار لما كان حالها ذلك الحال، ولو كانت ترضى تهديد الآخرين لدولتها لما قامت الحروب الدفاعية الرادعة في بدر والقادسية واليرموك وحنطين وعين جالوت وغيرها من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي.

ومن أمثلة ذلك العلاقات التي سادت بين الإمبراطورية الرومانية والدولة العباسية زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد.

يقول ابن الأثير: وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها ريني فخلعتها الروم وملكت نقفور فلما استوثقت الروم لنقفور كتب إلى الرشيد:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب: أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت لنفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً تحمل أضعافها إليها. لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافتد بنفسك بما تقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه. وتفرق جلساؤه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام.

ثم سار من يومه حتى نزل على هرقله ففتح وغنم وأحرق وخرب. فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله كل سنة فأجابه إلى ذلك. فلما رجع من غزوته وصار بالركة نقض نقفور العهد وكان البرد شديداً. فرجع إلى بلاد الروم في أشد زمان وأعظم كلفة حتى بلغ بلادهم فأقام بها حتى شفى واستشفى وبلغ ما أراد⁽⁶⁾.
ولننظر إلى رد الخليفة العباسي المأمون على إمبراطور الروم ثيوفيل بعد أن بعث له الأخير بكتاب فيه من المعاني ما يوحى بالتهديد والوعيد والعدوان على أرض المسلمين.

جاء في الكتاب: (أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من المودة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعظفت به شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ودفع القتل والقتال، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في قلب الفكر وألا اعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوتره في معتقه لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم. ثم أوصل إليهم الإمداد وأبلغ لهم كافياً من القوة والعتاد هم أظماً إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة، من مخوف معرفتكم عليكم. موعدهم إحدى الحسينين، عاجل غلبة أو كريم منقلب. غير أنني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحججة من الدعاء لك ولمن معك من الوجدانية والشريعة الحنيفية. فإن أبيت ففدية توجب ذمة. وتثبت نظرة. وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لنعوتها. وما يغني عن البلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى)⁽⁶⁾.

ومن خلال هذا الكتاب، ندرك أن خليفة المسلمين يرفض التنازل عن حق بل يستعد لحرب. وفعلاً فقد جاء في تاريخ الطبري وكذلك اليعقوبي أن المأمون استعد لحصار عمورية لكن ثيوفيل أرسل خطاباً يعرض فيه أن يرد نفقات حملته ويسلم من لديه من الأسرى ويصلح ما خرب الروم من ثغور المسلمين على أن يضع المأمون الحرب عنه وطلب إجراء الصلح والمهادنة بينهما بدلاً منها أو التهديد كما سبق⁽⁷⁾.

لو نظرنا إلى موقف الرشيد من نقفور ملك الروم، وكذلك موقف المأمون من ثيوفيل لأدركنا أن الشخصية العربية المسلمة ترفض قطعاً أن يكون لديها أي قابلية للاستعمار أو أي قابلية للتخلي عن جزء يسير من حقها وكرامتها.

ودون تفصيلات، أو اللجوء إلى ما دوتته كتب التاريخ عن الصدام الذي استمر حدوده عبر مئات السنين، تبين لنا الأحداث كيف رفض المسلمون السكوت عن غزو القدس واحتلالها وكيف قاد صلاح الدين الأيوبي جيوش المسلمين لاسترداد القدس وبقية المناطق العربية التي احتلها الصليبيون. ثم كيف نهض المسلمون يدافعون عن أراضيهم ودينهم في معركة المنصورة ودمياط. ثم كيف استطاعوا الخروج من محنة غزوة التتار لبلادهم فجرت معارك طاحنة كان أهمها معركة عين جالوت. كل هذه المعارك الفاصلة ألا تكفي لتدل على أن الأمة المسلمة ليس لديها قابلية للاستعمار.

وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث، أي منذ بدأ التمدد الاستعماري الغربي باتجاه الشرق العربي، نرى أن التاريخ الحديث نفسه يسجل آلاف الثورات التي واجهت الاحتلال والاستعمار.

احتلت فرنسا الجزائر عام 1830م، وظلت قابضة بنيرها الاستعماري على كاهل الشعب الجزائري مئة وثلاثين عاماً. لم تهدأ الثورات فيها ولم يسكت الشعب العربي على الاحتلال. فقدم هذا الشعب أكثر من مليون شهيد. وقامت ثورته الكبرى بدءاً من عام 1954م، حتى استطاعت أخيراً دحر الاحتلال على الرغم من بشاعته وادعائه أن الجزائر قطعة من فرنسا.

وفي المغرب العربي، استطاعت الثورات المتعاقبة التي قادها عبد الكريم الخطابي وغيره أن تدحر الاستعمار الفرنسي وإلى غير رجعة.

وفي مصر قامت ثورة عرابي وأسيلت الدماء غزيرة في سبيل تحرير مصر من الإنجليز ثم قامت ثورة زغلول ومصطفى كامل عام 1919م، وظلت تعيش في مخاض إلى أن تمكنت الثورة القومية عام 1952 من إخراج الغرباء عن حكم مصر. ومن ثم إخراج القوات الأجنبية من قناة السويس ومن مصر كلها.

وفي ليبيا، راحت الثورة تنتشر منذ بدء الاحتلال الإيطالي لها، فقامت ثورة المختار واستمرت طويلاً. مقدمة التضحيات وآلاف الشهداء والمرحّلين وظلت تعيش حالة الغليان إلى أن قامت الثورة الشعبية عام 1969، فطردت القوات العسكرية الأجنبية التي كانت تمارس الإرهاب والتجسس لصالح إسرائيل والقوى الاستعمارية.

وفي سوريا وبقية المشرق العربي قامت ثورات كثيرة منذ عشرينات القرن وحتى استقلال سوريا عام 1946م وقدم الشعب العربي فيها آلاف الضحايا.

أما في فلسطين، فقد انفجرت ثورة القسام منذ عام 1935، واستمرت حتى عام 1939، ثم لحقتها ثورات فلسطينية إلى أن أقيم الكيان الصهيوني عام 1948، ومنذ عام 1965 راحت الثورة المعاصرة تتسع وتنتشر وتعمق ومازال الشعب الفلسطيني حتى هذا اليوم يعيش حالة جهاد مستمر ضد الاحتلال الصهيوني.

ولو أحصينا ما قدمته الثورات العربية من شهداء وجرحى لأثبت لنا التاريخ أن أكثر الشعوب تقديماً للشهداء هو الشعب العربي.

ولو نظرنا اليوم إلى ما يقدمه الشعب العربي في العراق لأدركنا كم حجم المقاومين والمجاهدين وكم حجم الشهداء والضحايا. وكم حجم الدمار والخراب الذي يلحقه الغزو الأمريكي بالعراق.

إن كل هذه الثورات والضحايا والتضحيات ليست إلا الدليل القاطع على أن هذه الأمة ترفض الاستعمار والاستعباد مهما كان شكله ومهما حاولوا تزيينه بالشعارات والأكاذيب.

أما على المستوى الفكري والعقدي المعاصر، فإننا نرى أنه قد برز بعض المتقولين ودعاة الإصلاح ينادون باستجلاب الاستعمار، ويتصورون أن للأمة قابلية لهذا الاستعمار ولكن دعاء الدفاع عن شخصية الأمة وهويتها يقفون في المواجهة للتصدي لهذه الحملة المشبوهة. وعلى الرغم من التناقض الجاري اليوم بين الشعوب وبين بعض الأنظمة العربية والإسلامية، إلا أن المفكرين والكتاب من أصحاب الاتجاه العروبي الإسلامي يدركون أن المعركة الآن هي مع المستعمرين ودعاتهم. وهي معركة ذات اتجاهات متعددة

على المستوى المقاوم الذي نشهده في العراق وفلسطين وعلى المستوى الفكري الذي يتصدى للعوامة والغزو الفكري ويتصدى لمحاولات التشويه المستمرة التي يقصد من وراثتها تشويه الهوية العربية الإسلامية. وتشويه دينها وتراثها وماضيها وحاضرها ومستقبلها.

والواقع أن الحملة الاستعمارية الحالية هي حملة متعددة الأساليب والاتجاهات ومتنوعة الأشخاص وليس غريباً أن نجد في كل عصر من يروج للاستعمار وأفكاره. ويرحب دوماً بالزيف الغربي للديمقراطية والحرية التي يزينها الغرب بكل المساحيق حتى يخفي حقيقتها.

ونعتقد أنه كما جرى صراع فكري بين المتأثرين بالغرب والمدافعين عن العروبة وتراثها أيام رفاة الطهطاوي ومن بعده طه حسين، وأشباههما، سيشتد الصراع الفكري بين دعاة التغريب اليوم، وبين من يدافعون عن أصالة العروبة وتراثها وعقيدتها ودورها. ونعتقد أن الحملة اليوم، ستكون شرسة أكثر مما كانت عليه لأن دعواتها تجرؤوا على الثوابت العربية الإسلامية، حتى وصلت دعوتهم حداً تنادوا فيه إلى استجلاب الاستعمار والدعوة له. ولو أدى ذلك إلى احتلال جديد للوطن والأرض وإلى استعباد الناس من جديد.